العقل . . .

للأستاذ محمد محمود زيتون

ما أكثر ما يعرف الإنسان ! ولكن ما أقل ما يعرف عن نفسه . ولعل حكمة سقراط «اعرف نفسك بنفسك» لم تتغلغل في الأ[illegible] كما كان ينبغي [illegible] مع أن معرفة الإنسان تبدأ بما حوله ، ثم تنتهي به إلى نفسه ، فمعنى ذلك أن الإنسان لا يفرغ بعد من معرفته الخارجية حتى يخلص لمعرفته الداخلية . فالحياة تنمو وتتسع ، وتستطيل وتستعرض ، وما يزال هو هو المتعجب من أحوالها . ومهما يكن من تقلبات الحياة ، فإنه لابد له من أن يعرف نفسه ليتابع سير القوافل الإنسانية تخب في صحراء الزمان متعبة كليلة . . إذن ليعرف الإنسان نفسه بنفسه .

حقا لقد شغلت الإنسان حياته ، فعرف منها ما عرف ، وأبقى ما لم يكن يعرف حتى آن له أن يعرف ، وظل مرتبطا بهذه الحياة ينمو معها وتنمو معه ، تعلمه وتعمل له ، وهو بدوره يعلمها ويعمل لها ، غير أنها كانت قبله شيئا آخر غير ما صارت إليه ، بعد أن ملكته عليها طوعا أو كرها ، فقد كانت فوضى لا تجاوب ولا انسجام . غابات ودياج ، صواعق وجبال ، أمواج وأمطار ، كلها رهيب ، وكلها غريب . وهل حياة مع الغربة والرهبة؟ وهل حياة مع الوحشة والفوضى ؟ لابد إذن من « عقل » يؤلف بين هذه الكائنات أحياء وأمواتا . لابد من عقل يتفهم غايتها ورسالتها . لابد من عقل للحياة . لابد من « إنسان » .

شرف الإنسان يوم أصبح عقل الحياة ، وازداد شرفا يوم صار عقلا لنفسه ، وإذن فقد مر بتاريخ طويل عريض ، وتاريخ الحياة جزء من الحياة . مرت الإنسانية في نظر « كونت Conte » بمراحل ثلاث : اللاهوتية ، والميتافيزيقية ، والعلمية . وهذا التطور — وإن كان غير صحيح إلا أنه غير باطل ، لأن اللاهوتية والميتافيزيقية والعلمية مظاهر تبدى فيها العقل الإنساني حينا وأحيانا ، ومظاهر الإنسانية لا تحصى ، إذ لم يكن العقل من زجاج حتى يحطمه التفكير العنيف ، بل لم نعهد فيه الوقوف إزاء الحواجز والموانع مياغرا راهبا . وإنما اعتد بنفسه ، وكان لابد له من هذا الاعتداد ليكون عقلا . ولكن تفاوتت درجة الاعتداد بالذات فهبط إلى حد التواضع والتوقف عن العمل والعلم في ثوبي التصوف والشك وبلغ هذا الاعتداد حد الاعتداء على الذات كما عند نيتشه . وابتغى العقل أحيانا طريقا وسطا بين هذين الطرفين .

فلنحاول الوقوف على شتى أنظار الإنسان إلى العقل ، ومدى ما وصلت إليه الدوائر الفكرية من تحديد نطاقه . . سواء في ذلك الفلاسفة والمناطقة ، ورجال الدين والمتصوفة . والأخلاقيون ورجال الاجتماع والسياسة ، وعلماء النفس والحياة ، وأصحاب الرياضة والطبيعة وأهل الفن .

أما الفلاسفة فقد تناولوا أعمال العقل ، وتأملوا الإحساس كأول مظهر لهذه الأعمال يقول هرقليطس : « الحمار يفضل العاف على الذهب . والكلب يفضل كل ما لا يعرفه » فما سبب هذا ؟ السبب هو أن الحواس شهود غير عدول حينما تعمل في النفوس غير العاقلة ، فلا يستطيع الحيوان أن يميز بين المحسوس والمعقول لأنه ليس مزودا بما به يستطيع ذلك .

والإنسان — في بدء حياته — لم يكن يستطيع هذا التمييز ، لأنه امتزج بالحياة امتزاجا كليا انتهى به إلى التوحيد بين الموجود والفكر توحيدا تاما . فهو صورة للحياة ، والحياة صورة له . أو كما يقول « فردريك رتزل Fredrich Ratzel الإنسان روح في الطبيعة ، والطبيعة روح في الإنسان : « Man is a spirit in nature and nature is a spirit in man » .

وأنبا ذوقليس يفسر الإحساس بأنه تقابل الأشياء ، وإدراك الشبيه للشبيه . ويقول إن مركز الفكر هو القلب ، وقد سبقه ألفميون زعيم مدرسة أقروطونا الطبية في صقلية بأن المخ مركز الفكر .

وعلى العموم فإن أنبادوقليس وديمقريطس وأنكاغوراس كانت عندهم المعرفة العقلية هي الحسية ، وهم إن ميزوا بين العقل والحس فإنما كان هذا من حيث محتوياب كل منهما إذ كلاهما وظيفة عضوية

وكانت تلك أول خطوة نقدية خطاها اللاهوتيون والطبيعيون القدامى نحو المعرفة العقلية أعقبتها موجة السفسطائيين الذين أدوا للعقل أكبر خدمة كان سقراط أول وارث لها .

اتجه سقراط نحو العقل فى ذاته بقصد الكشف عن شرائط المعرفة الحقيقية : دعا إلى أن يعرف الإنسان نفسه بنفسه ، بأن يكتشف من معرفته بنفسه جهله بها ، ذلك الجهل الحافز على الفكر والذى ينتهى إلى العلم بخصائص العقل الرئيسية التى هى التعريف والاستقراء . ولما كان الحق هو الخير وكلاهما فى العقل أو هما العقل فإن العلم فضيلة ، والجهل رذيلة .

وتبنى أفلاطون نظرية أستاذه فى فطرية المعرفة ، وقال بوجود معرفة لأهل الكهف كانت لهم قبل ان تنشى عيونهم بنور الشمس رمز الحق والخير والجمال . ولن تزكو النفس إلا بتذكر ماضيها المجيد ، ولن تبلغ سموها بالعلوم التجريبية البالية وإنما بالحساب والموسيقى والهندسة والفلك تتيقظ على عالم المثل الباقية الخالدة والتى هى أسباب المعرفة والوجود جميعا ، والتى تذكرها علم ، ونسيانها جهل . ويقول فى « فيدروس » Phédre « وعندما تعجز النفس عن طلب الحق وتفشل فى الحصول عليه ، يسقط منها الجناحان ، وتهوى إلى الأرض . . أما النفس التى لم تر الحق قبلا فلن تأخذ الصورة البشرية ، لأنه لابد للانسان من معرفة بالكليات وقدرة على الانتقال من الجزئيات الحسية إلى المعنى العقلى ، وذلك هو استجماع هذه الأشياء التى كانت النفس قد رأتها من قبل فى سبيلها إلى الله عندما رفعت رأسها تستشرف الوجود الحق » .

لم يستطع أفلاطون أن يتعرف خصائص العقل فى ذاته ، فولى وجهه شطر مصدره الأسمى وهو الله مثال المثل . وإن كان فى طريق النفس إلى المثل ساعدة ومنها نازلة قد رسم أفلاطون سبيل الخلاص بالتزكية النفسية وهو سبيل إن كان حظ الحقيقة فيه أقل من حظ المثل إلا أن المثال نفسه من خلق العقل وابتكاره .

أما أرسطو فقد نظر إلى العقل من عدة جوانب ، وقل أن يخلو كتاب له من نظرة فى العقل . فعنده العقل المنطقى فى « البرهان » ، والعقل الأخلاقى فى « الأخلاق » والعقل الاجتماعى فى « السياسة » والعقل السيكولوجى فى « النفس » ، والعقل من حيث هو عقل فى « الميتافيزيقيا » حيث قسمه إلى أربعة : عقل بالقوة ، عقل بالفعل ، عقل مستفاد ، عقل فعال . وسار بنظرية العقل حتى وصل بها إلى الله « عقل العقل » الذى يتأمل ذاته لأنها أشرف ذات . وشرف العقل إنما جاء من شرف موضوع لعقله ، والموجودات تنزع إلى كمالها بالاشتياق إلى الله . وبذلك تفادى أرسطو مشكلة ، كيف يتصل اللاحسى بالحسى ؟

وبهذا المجهود العنيف كان أرسطو جديرا بأن يخلع عليه لقب « العقل » أو « عقل المدرسة » . ويكفى فى هذا المقام أن نشير إلى تطور فكرة العقل الأرسطاطاليسى عند تلاميذ أرسطو وشراحه وأنصاره وخصومه من المسلمين وغيرهم فى القديم والوسيط والحديث . وذلك لاختلاف الأنظار فى فهم عقل أرسطو اختلافا لم نشهد له مثيلا فى تاريخ المسائل الفلسفية .

ولقد اطرد التيار الأرسطاطاليسى الواقعى ، وإلى جانبه التيار الأفلاطونى المثالى ، وتراوح المفكرون بينهما ، فمن جانب أفلاطون انحاز إلى أرسطو ، ومن جانب أرسطو انحاز إلى أفلاطون .

وتبلبلت الأفكار فى عصر السفارطة الصغار كرد فعل للحياة ومستلزماتها حتى لقد خلط إقليدس الميغارى بين الله والعناية والعقل وكلها أسماء للخير عنده . وظهر العقل عند الرواقمية فى ثوب أخلاقى : إذ العقل هو أكمل الطرق لتحقيق أسمى الغايات ، وبالعقل يدرك الحكيم أنه جزء من الطبيعة الكلية ، والله عندهم هو « العقل » منبثا فى العالم ، هو روحه المادية اللطيفة ، وعليه تتوقف الغائية والضرورة المطلقة وقوانين الواجب .

أما الأبيقوريون فقد تحرروا من كل عقل ، وانهمكوا فى الملذات دون وعى بواجب أو قانون ، وانحدرت المثالية الواقعية جنبا إلى جنب نحو الأفلاطونية الحديثة ، وفيها لم يختلف مالأفلاطون ومالأرسطو . فالعقل والمعقول شىء واحد ، والعقل هو التفكير صار فعلا محضا ، وكما ينطوى العقل على عدد من المثل كذلك « النفس الكلية » تنطوى على عدد من النفوس الفردية تهبط إلى الأجسام « كما لو كان صوت مناديلها » ولكنها فى هبوطها قد تذكر مرورها فى حال أصلها ، ناسية أباها الذى فى السماء ، وهى إن خرجت من الجسد لتعود إلى الله لانفصلها قط عن النفس الكلية ، مقامها دائما فى العقل ، ولترجع النفس إلى الله يلزمها أن تخرج عن نفسها بالزكاة النفسية والتأمل فى المثل أولا وأخيرا .

وإدمان النظر فى الحياة ، واضطراب ماجرياتها فى الوجدان أدى إلى الشك ؛ فالحواس خادعة ، وليس لدى العقل ضمان للحقيقة واليقين فتوقف الشكاك عن السلب والايجاب وآثروا تعليق

الحكم ، واستمرأوا الخيدة فى السلوك[1] .

وانطوى القديس أوغسطين على نفسه حين أراد أن يعرف ربه ، لا بالفيزيقيا الحقيرة ، وإنما بالوجدان والعلم الباطنى ، فمتى عرف العقل الإنسانى أنه متغير ، وفى الوقت نفسه لو عرف أن لديه فكرة عن الحق الثابت الباقى ، فليس على العقل إلا أن يسمو على نفسه ليرقى إلى منبع كل نور وأصل كل خير ، إلى العقل الذى ينيرنا إلى الله ، وهو المبدأ البارق لكل التقاويم التى يظهر فيها خالقه[2] .

ولابد من الإشارة إلى الجدال العريض الذى دار حول أسبقية الكليات بين الواقعيين والاسميين من فلاسفة المسيحية فى القرون الوسطى . قال « القديس أنسلم » وهو من الواقعيين الأفلاطونيين « الكليات أسبق من الموجودات » UniVersaita anterem وقال « كما أن الفكر هو الواصل بين المرء نفسه ، فكذلك المثل هى الواصلة بين الله وذاته » الله مصدر كل معرفة هو الحق الأسمى الذى يخلق كل حق ، وهو الطيب الذى يمنح كل طيب ، والمطلق الذى منه وحده ندرك النسبى الذى لابد لنا من نماذج سابقة عليه نتمثلها حتى نوازن أو نحكم . وهكذا بإدراك النسبى اتخذ أنسلم برهانا مباشرا على المطلق وهو الله .

وعارض هذه النزعة جماعة الواقعيين الأرسطاليين من أشهرهم « ألبرت الأكبر » و « توماس الأكوينى » و « دنز سكوتس » وقالوا بأن ليس للكليات وجود جوهرى خارج الأشياء ، بل هى — كما يقول أرسطو — لا توجد قبل الأشياء وإنما فى الأشياء Non ante rem, sed inre وبذا لا ينهار القول بالمثال . والقديس « توماس الأكوينى » يميز العقل Ratio والنفس Intellectus التى هى الملكة العليا للمعرفة والحدس ، وإن كان أصلهما فى طبيعة النفس واحدا .

أما الأسميون Nominalistes فقد رفضوا المعانى العامة ، وقالوا بأن العقل ما دام بالقوة فلا يمكن أن يفضى إلى الإيمان . منهم « وليام الأخامى » William of Occam الانجليزى (القرن ١٤) ، وعنده أن العالم فى العقل لا فى الأشياء ، أن ليس للمعانى وجود فى عقل الله ، ولا سبيل إلى المعرفة إلا الحدس بنوعيه الحسى والوجدانى . ولما كان الحق نسبيا وقائما على الحدس الشخصى فليس للعقل إذن وجود مطلقا .

ولقد اهتم فلاسفة الإسلام بنظرية العقل متأخرين ، فتح الباب لهم « الكندى » فى رسالة « معنى العقل عند الأقدمين » وتبعه « الفارابى » فى « مقالة فى معانى العقل » وعالجها « ابن سينا » فى نظرية الصدور أو الفيض ، وكذلك « الغزالى » فى علم كيف رتبها فى هذا الباب « معارج القدس فى معرفة مدارج النفس » وكذلك « ابن رشد » فى « مناهج الأدلة » . وهؤلاء جميعا حولوا عقل أرسطو إلى عقل إسلامى ، جانبه الفلسفى معروف ، أما جانبه الإسلامى فأصله الحديث المروى « أول ما خلق الله العقل ، فقال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له : أدبر فأدبر ، فقال : وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا أعز إلى منك ، بك أعز وبك أذل ، وبك أعطى وبك أمنع » . وقد ذكر الشهرستانى أن الحايطية — أصحاب أحمد بن حايط المعتزلى — أولوا حديث رؤية الله يوم القيامة بأنه العقل الفعال أو العقل الأول الذى يعنيه الحديث .

(للكلام بقية) محمد محمود زيشوده

(١) راجع الرسالة : مقالتى ٢ و ٣ مارس « نيرون » أبريل سنة ١٩٥٠

(٢) الاعترافات .

اعلان مناقصة

تقبل العطاءات بتفتيش مبانى بحرى القاهرة بالدور العلوى بمبنى وزارة المواصلات لغاية يوم ٢٧-٥-٩٥٠ عن الأعمال الكهربائية لعمل الشبكة الكهربائية لإنارة الشوارع . تغذية المساكن مستعمرة المحاجر بأبى زعبل وثمن المستندات ٣٥٠ مليم والبريد مائة مليم وكل عطاء غير مصحوب بالتأمين المؤقت كاملا بواقع ٢ فى المائة (اثنان فى المائة) من قيمته لا يلتفت إليه بالمرة . وسنقدر فى أمر مقدمه بحرمانه من التعامل مع المصلحة . ٤٧٤٩